نماذج من النثر

الحِكَمْ

من حِكَمِ أبي بكر رضي الله عنه قوله:

صنائع المعروف تقي مصارع السوء. الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله. ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر.

ولعمر رضي الله عنه:

من كتم سره كان الخيار في يده. مر ذوي القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي.

وقال علي كرم الله وجهه:

رأى الشيخ خير من جلد الغلام. الناس أعداء ما جهلوا. قيمة كل امرئ. ما يحسن.

الخُطَبْ

خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال:

أيها الناس! إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم. وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم؛ فإن العبد بين مخافتين: أجل قد مضى فلا يدري ما الله فاعل به، وأجل باق لا يدري ما لله قاض فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فو الذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار، إلا الجنة والنار.

وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار في أمر الخلافة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثرهم ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم. أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم فقال

تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: 100] فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء وأنصارنا على العدو. آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً؛ فنحن الأمراء وأنت الوزراء. لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش. فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

يا أهل المدينة إني لا أحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق: يعيبون الشيء وهم فيه. كل امرئ منهم شيعة نفسه. فاقبلونا بما فينا. فإن ما وراءنا شر لكم، وإن معروف زماننا منكر زمان مضى، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت. ولو قد أتى فالرتق خير من الفتق، وفي كل بلاغ، ولا مقام على الرزية.

وخطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم قال:

يا أهل العراق! إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والشغاف، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باض وفرخ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً. وقد اتخذتموه دليلا تتبعونه، وقائداً تطيعونه، ومؤمراً تستشيرونه. فكيف تنفعكم تجربة، أو تعظكم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردكم إيمان؟ ألستم أصحابي بالأهواز، حيث رمتم المكر وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لِوَاذا، وتنهمرون سراعاً. ويوم الزاوية! وما يوم الزاوية! بها كان فشلكم وتنازعكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ وليتم كالإبل الشوادر إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح، وقصمتكم الرماح! ويوم دير الجماجم! وما دير الجماجم؟ بها كانت المعارك والملاحم، بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذيل الخليل عن خليله. يا أهل العراق! أهل الكفرات والغدرات، والثورة بعد الثورات! إن أبعثكم إلى ثغوركم عللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون خشية، ولا تشكرون نعمة. هل استخفكم ناكث واستغواكم غاو واستنصركم ظالم واستعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه

ورضيتموه؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كنتم أشياعه وأنصاره؟ ألم تنهكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! إنما أنا لكم كالظليم الذاب عن فراخه، ينفي عنها المدر؛ ويبعد عنها الحجر، ويكنها من المطر. يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء، وأنتم العدة والغطاء!.

الرسائل

كتب أبو عُبَيْدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينصحانه:

من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب، سلام عليك، فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها أسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكل حصة من العدل. فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك. وإنا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجب له القلوب، وتنقطع فيه الحجج، بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون له، يرجون رحمته ويخافون عقابه. وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون أخوان العلانية أعداء السريرة. وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا، فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام.

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه:

أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك. وذلك أنك ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء من غير جريرة، فأطعمني أولك في إخائك، وأيأسني آخرك من وفائك. فلا أنا في اليوم مجمع لك أطراحاً، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة. فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فاجتمعنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف، والسلام.

الوصايا

أوصى علي بن أبي طالب ولده الحسن قال:

أحفظ عني أربعاً وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن: أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العجب، وأكرم الحسب حسن الخلق. يا بني! إياك ومصادقة الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. وإياك ومصادقة البخيل، فإن يبعد عنك أحوج ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه. وإياك ومصادقة الكذاب، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد، ويبعد عنك القريب.

وأوصى قيس بن عاصم المنقري بنيه عند احتضاره قال:

يا بني احفظوا عني ثلاثا، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسودوا كباركم، ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم وعليكم بحفظ المال، فإنه منبهة للكريم، ويستغنى به عن اللئيم. وإياكم والمسألة فإنها أخس كسب الرجل.

اللحن ونشوء العامية

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحدت في الجاهلية لغات العرب، وتمثلت لهجاتها في لغة قريش؛ فلم يبق إلا بعض اللحون على أطراف المنطق. فلما جاء الإسلام، ونزل بها القرآن، وكان من بنيها النبي الكريم والقائمون بالأمر بعده، تمت لها الغلبة. فخضعت لها الألسنة، وهويت إليها الأفئدة، وأصبحت لسان النبوة والملك، ولغة الحضارة والعلم، في أقطار المسلمين كافة. ولما كان الإسلام انقلاباً عظيماً له تأثيره في الأخلاق والطباع، وتغييره في السياسة والاجتماع، لم يكن للغة بد من الخضوع له والتأثر به، فاتسعت مادتها وتشعبت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين، وأنظمة الملك، ومقتضيات الحضارة، ومصطلحات العلوم. وتهذيب ألفاظها ورقت أساليبها بما اثر في طباع القوم من بلاغة القرآن، وبشاشة الإسلام، وجمال المدنية، وتنوع المناظر الحضرية [1].

ثم كان من أثر الإسلام في حياة العرب أيضاً أن محا العصبية، وأزال الفوارق الاجتماعية وغير مقاييس السيادة فجعلها بالتقوى والعبادة، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة، وضم نشرهم تحت راية جامعة. ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف، فأوطأهم ديار كسرى وقيصر، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب. ومنذ يومئذ لم تعد العربية لغة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادي الحجاز ونجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر. واستفاضت على ألسنة المسلمين [2] أحمرهم وأسودهم، والمتعربين أدناهم وأبعدهم، وليس في

---

(1) للحضارتين الفارسية والرومية السهم الأوفر في تهذيب اللغة وإصلاحها أيام الأمويين، فقد اتخذ المسلمون نضائد الحرير وسطور الديباج وزادت حاجاتهم ومرافقتهم فزادت معها الألفاظ، ورقت حواشيها برقة المعيشة ورفاهتها.

(2) قال ابن خلدون: " ولما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها؛ لأن الناس تتبع السلطان وعلى دينه. فصار استعمال اللسان

مقدور هؤلاء بطبيعة الخلق أن ينطقوا بها كأهلها، فارتضخوا أنواعاً من اللكنة، وأحدثوا أوضاعاً من الخطأ، علقت بألسنة المستضعفين من العرب والناشئين منهم بين الموالي. ولذلك ظهر اللحن في الحواضر والمدن دون البادية، فقد بقيت اللغة على خلوصها فيما حتى آخر القرن الرابع. بدت أعراض هذا الداء منذ زمن الرسول (ص) ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا في الدولة الأموية فشوا تناول الخلفاء والخاصة. وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحو والشكل والإعجام والنقط. على أن كل ذلك لم يعصم اللغة ولم يصد عنها عادية اللحن، فأمعن العامة في التصحيف والتحريف حتى جعلوا اللغة لغتين: لغة الكتابة ولغة المحادثة كما هي الآن.

=

العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب. وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأقطار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة ".

النحو

يروي المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة 69 هو واضع مبادئ النحو، وأن السبب الذي حداه إلى التفكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. وذكروا في ذلك أنه دخل يوماً على زياد ابن أبيه وهو والي العراقين، فقال له: أصلح الله الأمير! إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم. أفتأذن لي أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم؟ " فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول: " أصلح الله الأمير. توفى أبانا وترك بنون... " فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول، وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التي تصلحها. ثم تناوله منه أدباء البصرة والكوفة فكلموه وفصلوه كما سنذكر ذلك بعد. والغالب في ظننا أن أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه، وإنما يرجح أنه ألم بالسريانية (وقد وضع نحوها قبل نحو العربية) أو اتصل بقساوسته وأحبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع. وعلى أية حال فإن أولية النحو لا تزال مجهولة.

العلوم في العصر الأموي

لم تكن نفوس العرب مهيأة بعد إلى العلم، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب، فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالطب والنجوم. حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة، وتشعبت عليهم الأقضية، وضعوا النحو لضبط القرآن، والتفسير لحل مشكله، والفقه لاستنباط الأحكام منه، ودنوا الحديث خوفاً من ضياعه أو افتعاله.

واقتضت حنكة معاوية وحكمة خلفائه أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم[1] فألف عبيد بن شَرْيَةَ كتاب الملوك وأخبار لماضين لمعاوية؛ وربما كتب غيرُه غَيرَه، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه. أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تعن أحداً في هذا العصر، اللهم إلا خالد ابن يزيد حفيد معاوية، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في الملك، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها.

وجملة القول في هذا العصر أن كان فيه نضج الآداب الجاهلية، ونشوء العلوم الإسلامية، وبداية النقل من العلوم الأجنبية.

---

(1) ذكر المسعودي أن معاوية كان يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة من العشاء إلى ثلث الليل، فيقضون عليه أخبار العجم والعرب وسياستهم في رعاياهم ومكائدهم في حروبهم ثم ينام ثلث الليل ويقوم فتأتيه غلمان مرثيون وعندهم كتب قد وكلوا يحفظها وقراءتها، فيقرءون عليه ما بها من سير الملوك وأخبار الحروب وأنواع السياسات.

الخط بعد الإسلام

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود. فلما كتب الله النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر وأخذ بعض كتابهم أسرى، قبل الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء أن يفتدي كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة، فكثر سواد الكاتبين من أهل المدينة. وشاعت الكتابة بعد ذلك في العرب إطاعة لأمر الرسول، ورغبة في كتبة القرآن، وطمعاً في دخول الدواوين، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة:

وكان الخط في أول أمره خاليا من الإعجام والشكل، حتى فشا اللحن وخيف منه على القرآن، فضبط أبو الأسود الدؤلي في زمان معاوية أواخر الكلم في المصاحف بالنقط؛ فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله، وعلامة الضمة نقطة بين يديه. واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بمداد مخالف. فلما تغايرت أشكال الخط، وتشابهت أوضاع الحروف، فالتبست الجيم[1] بالحاء، والدال بالذال، والسين بالشين، أمر الحجاج نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذي أبي الأسود فوضعا الإعجام بالمداد الذي تكتب به الكلمة تمييزاً للحروف بعضها من بعض. ثم جاء بعد

---

(1) من أمثال ذلك أن عجوزاً جاءت الفرزدق وقالت له: إني استجرت بقبر أبيك. فقال لها: ما شأنك؟ قالت: إن تميم بن يزيد خرج بابن لي ولا قرة لعيني ولا كاسب علي سواه. فقال: وما اسم ابنك؟ قالت: خنيس. فكتب إل تميم:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي بظهر فلا يعيا عليَّ جوابها

وهب لي خنيساً واحتسب فيه منة لعبرة أم لا يسوغ شرابها

فشك تميم في اسم الرجل (خنيس) واستقرى أسماء رجاله فوجد ستة أسماؤهم بين خنيس وحنيش وحيش ألخ فوجههم إليه.

ذلك الخليل ابن أحمد وضع الشكل على هذا النمط المعروف، فحل نقط أبي الأسود [1].

وفي العصر العباسي ناله ما نال كل شيء فيه من النمو والتقدم. فقد تنافس الكتاب في تجويده، وتفننوا في تنويعه. وخالفوا بين أوضاعه في بغداد وأوضاعه في الكوفة، باختراع الأقلام كالقلم المرصع، وقلم النساخ، والقلم الرياسي (نسبة إلى مخترعه ذي الرياستين الفضل ابن سهل). ثم تعددت تلك الأقلام وتنوعت حتى نيفت أشكال الكوفي على عشرين شكلا. أما الخط النسخي فقد كان مستعملاً بين الناس في غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو علي محمد ابن مقلة المتوفى سنة 328 فجود هذا الخط ونمقه حتى تميز من أصله بالحسن والجودة، واستعمل في كتابه المصاحف وأدخل في الواوين. وجاء بعده علي ابن هلال المتوفى سنة 413 فزاد في تهذيبه وتحسينه حتى حل محل الكوفي. ثم تنوه الخط النسخي إلى عدة أقلام (كالطومار) وعرض قطته أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون. أو ثلاثة ملليمترات، (والثلثين) وعرضه ملليمتران، (والنصف) وقياسه ملليمتر ونصف. (الثلث) وعرضه ملليمتر واحد. ثم تتدرج الأقلام في الدقة، فيجيء خفيف الثلث، فاللؤلؤ، فالتوقيع، فالرقاع، فالمحقق، فالغبار، وهو أدقها، وبه كانت تكتب بطائق الحمام الزاجل ونحوها. ولا يزال الخط العربي يتنوع ويتفرع خضوعاً لنظم الطبيعة في

---

(1) اقتصرت الأمم السامية في خطوطها على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية، فلا يكتبون (نصير) (ناصارا) كما يفعل اليونان والرومان والأمم الأوروبية الآن ودلوا في مؤتنف الزمن على الأحرف المحذوفة من الكلمة بنقط فوق الحرف أو تحته على نحو ما فعل أبو الأسود في الخط العربي. ولكن الخليل ابن أحمد إن صح أنه واضح الشكل المعروف لم يستعمل النقط في الدلالة على الحركات. وإنما استعمل الحروف الصوتية المحذوفة وهي الألف والواو والياء، فاختصر من الألف الفتحة، ومن الواو الضمة، ومن الياء المسرة. فالحركات كما قال الإمام الرازي أبعاض المثوتات. أما العلامات الأخرى كالمدة والوصلة والشدة فقد وضعت في العصر العباسي بعد زمن الخليل. وهي رءوس كلمات تؤدي معانيها؛ فالمد (آ) من (مد)، والوصلة (ص) من (صل)، والشدة () من (شد).

النشوء والرقي. وكثير من الأمم التي استضاءت بنور الإسلام واستعزت بلغته يكتب به، كالفارسية والأفغانية والأردية واللغات الإفريقية.

على أن اقتصار العرب في خطهم على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية قد أوقع القارئ في لبس شديد، فإن الكتاب قد برموا بالشكل وضاقوا به فتركوه فأصبح القارئ إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلا لا يدري كيف يقرأه إلا إذا فهم المقصود منه في سياق الكلام. فهو يقرأ: عَلِمَ أو عُلِمَ أو عَلَم أو عُلِّمَ أو عَلّم أو عِلْم. ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط العربي، حتى غلا بعضهم فدعا إلى اتخاذ الحروف اللاتينية كما فعلت تركيا بعد سقوط الخلافة. وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن يبتكر طرية للخط العربي نكمل نقصه وترفع قصوره فجاءته من أكثر البلدان الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف، ولكنها لم تصب الغرض الذي نصبه المجمع، فألف في عام 1959 لجنة من بعض أعضائه ومن ذوي الاختصاص بوزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة فلبت الأمر على جميع وجهه ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت بإتباع الشكل كاملا في كتب التعليم الابتدائي ثم يقل بالتدريج في المراحل المتعاقبة حتى يقتصر منه على شكل ما يشكل من الكلمات، وبرأيها أخذ المجمع.